المحاكمة
محمد الماغوط

(قاعة محكمة منخفضة السقف جداً ومظلمة جداً . القاضي يجلس خلف طاولة مرتفعة تأخذ حيزاً كبيراً من ساحة القاعة ، وقد تدلت السياط المجدولة من زواياها . حاجب مدجج بالسلاح على يمين القاضي. المتهم يقف بعيدا كالجرذ في الجانب الآخر من القاعة ، وخلفه صورة جمجمة وعصفور معلقة على الحائط . هو نفسه صانع الاحذية الذي كان معتقلا في الصحراء في فصل سابق من المسرحية) .

القاضي : ليس من اغرب الامور ، بل من اكثرها شناعة واستهتارا بالمثل والتقاليد ، ان يخرج صانع احذية قذر ، لم ير في حياته سحابة او عصفورا ، من حانوته ، ويتجول حافيا مع زوجته واطفاله على الزجاج المحطم ، مطالبا بالمطر والحب . احبّك الجحيم . هيا تقدم .

المتهم : لقد تقدمت ما فيه الكفاية يا سيدي .

القاضي : قلت تقدم ، ولا تجعل الانكسار والمذلة شعارك الخالد منذ الآن .

المتهم : سيدي ، يكاد انفي يلامس حذاءك .

الحاجب : وماذا في الامر ؟ انه انظف من كل انوف العالم ، انه الممثل الشخصي لمولانا الامير .

المتهم : اعرف ذلك ولكن —

الحاجب : ولكن ماذا ؟ (يصفعه على وجهه) .

المتهم : لكن لا شيء . ارجوكم ، او بالاحرى ارجوكما ، سأتقدم في الاتجاه الذي تريده العدالة والتاريخ ، والمسافة التي ترضي سيدي الحاجب . سأقف على الطاولة اذا اقتضى الامر . ولكن مهما كان وضعي قميئا ومنحطا ، لا احب ان اخاطب حذاء ما .

الحاجب : انني لا اطلب منك التقدم كي اهيم على صدرك وانتحب ، ولا لكي اتأمل هذه الاسنان الجاحظة والمهيأة كالبنادق لقضم اي شيء ، اي شيء حتى هذه العنق (مشيرا الى عنق القاضي) . اليس كذلك ؟

المتهم : (بصوت خافت) هذا العنق او غيرها ، عندما ارى طفلي يفكر في كثير من

الاحيان بالتهام شقيقته الرضيعة وهي نائمة .

الحاجب : نحن هنا في محكمة وليس في مطعم .

المتهم : اعرف ذلك يا سيدي .

القاضي : (بعد ان يلتفت الى الحاجب) قـد تعرف انك في محكمة وليس في مطعم ، ولكنك لن تعرف ابدا ان حياتك كلها مسطّرة في هذا الملف، وان عدالتنا لا تجلس على السطوح حتى تتكهن بنتائجها كما يلوح في عينيك. انهـا تختفي وتبرز ساعة تشاء ، ولكن فيما يضمن مصلحة الدولة وسلامة المواطنين .

المتهم : اعرف يا سيدي ان ملفي كبير كبير، وان عدالتكم، بل وكل عدالة في العالم ، تختفي وتبرز كمخالب القط ساعة تشاء . ولكن ما اعرفه ايضا انه مهما تكن تلك المخالب صلبة وحادة فانها مقوّسة، ولذلك من المستحيل ان تسير بشكل مستقيم . ثم لا اظن ، من جهة اخرى ، ان هذا الشيء الموضوع قرب ابريق الماء (مشيرا الى الملف) هو حياتي ، او حياة مسمار صغير في حانوتي .

القاضي : لقد كتبه رجال مختصون وعادلون ، واي شك في هاتين النقطتين هو كالشك بحرارة النار وبرودة الصقيع .

المتهم : كما تريد يا سيدي ، ولكن —

القاضي : ولكن ماذا ؟

الحاجب : (للقاضي) لا تصرخ كثيرا : لقد ثقبت اذني . (للمتهم) هيا ، ولكن ماذا ؟

المتهم : لاشيء . ولكنني عندما فكرت منذ لحظة بان كل ما قاسيته وسأقاسيه من مرض وحزن وزواج وولادة، مختصر بهذا الشكل—كحاشية في دفتر بقال— شعرت بان الحياة ليست غير محتملة فحسب ، بل ان مجرد التفكير بها اكثر قسوة من سقوط سيف مشهور على رأس القلب . وان كل ما احس به ولا احس لا معنى له على الاطلاق . قل ما تريد وسأجيبك كما تريد. اذا الاختصاص والعدالة شيئان هائلان احني لهما كل ما تبقى من الاشياء المنتصبة في جسدي المتواضع هذا .

الحاجب : وهذا ما نريده بالضبط، لان هذه المحاكمة ليست وسيلة لنكأ الجراح والتدقيق بالنظارات في شؤون الحزن والزواج والولادة ، بقدر ما هي طمر خارق وفذ لكل هذه الامور ، ولتكون من جهة اخرى ضمادا تاريخيا لكل الجراح التي فتحت بالاصابع ، في قلب الوطن ، باسم الحرية والجنس والمداعبات السرية ، وبقية تلك السخافات التي تكرع منها قبضاتكم كما يكرع البط في الماء .

المتهم : ارجوك ان تقرأ الوقائع .

القاضي : ولم العجلة ؟ هل نحن في قطار ؟

المتهم : لانني لا اعرفها.

الحاجب : تعرفها او لاتعرفها ، ستحاكم بموجبها . اقرأ ايها القاضي .

القاضي : سأقرؤها فورا ياسيدي .

الحاجب : اقرأ المقدمة فقط ، واترك التفاصيل للتاريخ .

القاضي : نعم ، للتاريخ ياسيدي .

(القاضي يزم شفتيه على لفافته، ويتشبث باللف" كأنه يقود سيارة) منذ الف عـام ، او بعد الف عام ، لا نذكر ، في الربيع او الخريف ، لا نذكر ، شوهد المتهم بصحبة امرأة حنطية اللون ممزقة الثياب مع عدد من الاطفال ، يسيرون الهوينى تحت الغمام الشفاف بطريقة لا تتفق ابدا مع ما يتطلبه هذا الوطن من صلابة ومجد ، ويحمل كل منهم سنبلة جافة كالخشب ، باحترام بالغ وحنان لا يوصف ، كما يحمل الكهنة شموعهم في المعـابد ، يتعانقون ويهتفون علنـا في الشوارع المقفرة وامام النوافذ المغلقة : « يحيا المطر والحب » . كما كان المتهم والمتهمة يقبل واحدهما الآخر علانية كلما مرت سحابة من بعيد ، دون اي شعور بالخجل والمسؤولية تجاه رغبتنا في المحافظة على سرية النصوص وعظمة الشرائع .

المتهم : (مقاطعا) سيدي ، سيدي ، وما الجريمة في ان يحمل عاشقان ما سنبلتين محطمتين ؟ ما الجريمة في ذلك ؟ هل تريد منهـما ان يحملا مسدسين ليكونا مواطنين شريفين نبيلين ؟

الحاجب : قاطعني مرة اخرى لانهي هذا القرار بدمك . تابع ايها القاضي .

القاضي : وعندما اقترب احد رجالنا من المتهم للاستفسار منه عـن سر هذا التصرف المرعب ، زجره بقسوة وضربته المرأة العاشقة بسنبلتها ضربا مبرحا على فمه ويديه ، مما سبب له رضوضا عميقة وواضحة الى اقصى الحدود . وبدلا من ان يلتقطاه عن الارض ويضماه الى صدرهما بحنان ، التقطا سنابل القمح المضرجة بدمه وراحا يطيران طيرانا تحت اوراق الخريف . ولكن عندمـا استيقظ المجني عليه لحق بهـما فورا والدم ينزف من فمه واصـابعه ، وطلب بطاقـاتهم الشخصية والتوقيع على مذكرات بالقبض عليهم ، فرفضوا . بل وسخروا منه وهو في قمة آلامه وانفعالاته ، حتى ان احد الاطفال تناول الورقة منه وهزها طويلا بيده ثم جعلكها ووضعها في فمه وهو يضحك واللعاب يقطر من طوقه الازرق الجميل، يضحك ويضحك وينظر الى عيني الحارس الغاضبتين

القانونيتين . حينذاك لم يجد بدّاً من تأدية واجبه، فأطلق الرصاص على الطفل. وهنا جنّ جنون الوالدين ، واخـذا يزعقان ويشتـمان ، وينثران التراب على رأسيهما ، بينما الطفل القتيل لم يتحرك ، بل بقي مكبّا على وجهه ، وساقاه منفرجتان ، وكأنه سيمتطي دراجته الصغيرة بعد لحظة .

ولذلك ، ونتيجة لهذه الجريمة الخطيرة ، قررنا انا وحاجبي ، بنـاء على السلطة الممنوحة لنا من مولانا الامير ، توقيف المدعى عليـه في سجـن الحرية المركزي ، ومنع المحاكمة عن الخريف لانه هجر الوطن سحابةً اثر سحـابة بعد وقوع الحادث . ثم فرض الاقامة الجبرية على الام في صحراء من الرمال ، مع مصادرة كافة امشاطها واقراطها وادوات زينتها ، ومنعها منعا بـاتا من الحنين الى زوجها واطفالها قبل انتهاء التحقيق ، ثم تحريم اللعب على الطفلين الباقيين ، وحجز كل منهما في قفص صغير للأرانب في صحراء اخرى ، مـع مصادرة كافـة لعبهـما وطاباتهـما المنقولة وغير المنقولة ، حـتى يصـدر امر معاكس لذلك .

قرار قطعي غير قابل للنقض او الطعن —

الحاجب : ولو نهض جميع مؤرخي القانون واطفال العالم عراةً من قبورهم . (فترة صمت).

المتهم : (يمسح العرق عن وجهه) سيدي ، سيدي ، لا اعرف فعلا باية لغة اهنئك. ان الانسانية كلها ، التاريخ بمجمله ، ملخص في بضعة سطور . كان يجب ان لا تلقى والنوافذ مفتوحة هكذا .

القاضي : انني لست بحاجة الى مديح ، فرسائل الاعجاب تملأ ادراجي ، ولـن يتغير موقفي من جريمتك النكراء ولو امطرتني مدائحك كالسهام .

المتهم : معاذ الله ياسيدي ؛ ولكنها المفاجأة ، الدهشة العظيمة لرؤية العالم مقذوفـا بكل وميضه الجاهلي ككرة القدم الى الوراء ، ممزقا شبكة الرمي ، مطيحا بالقسم الاعظم من المتفرجين ؛ انها القناعة المطلقة بما تقول وما لا تقول ، هي التي جعلتني احلم الآن بالموت تحت المطر ، بقوارب مهشمة يسيل على صواريهـا المتأرجحة دم العصافير ودم الاطفال . الطعنة العميقة خـارج الجلد هي التي جعلتني اتوجس وانهـار ، غارسا اصابعي حتى نهـايتهـا في هذه الارض التي انجبتك صدفة كالينبوع ، كالطوفان . آه ، النجدة ، النجدة . يا طفلي الصغير الحبيب ، انني اختنق . (يتكوم على قدمي القاضي وينتحب) .

القاضي : قف بعيدا ، هناك . لسنا بحاجة الى مزيد من الدموع .

الحاجب : عندنا مستودعات منها . تابع ايها القاضي .

القاضي : نعم ياسيدي .

هناك تماثيل من البرونز لجبناء ولصوص ، نصب تذكارية لبغايا ، اسوار من اللؤلؤ والياسمين لجواسيس يحملون وطنهم في محافظهم ، فرسان بعمر الورود دخلوا روما وخرجوا منها واحشاؤهم معلقة على اطراف سيوفهم ، في طريقهم الى المنفى ، ورجال تافهون دخلوا دورات المياه وخرجوا منها في طريقهم الى العرش .

ولذلك فنحن لا نريد ان نسبح في الاخطاء مرة اخرى . سنمخر عباب العالم وسكين التصفية بين اسناننا ، وعلى السفن ان تبحر في اقصى الظلمات واحلكها على حرائق المسافرين ونيران الحبال وزوارق النجاة ، اذا كان الوطن محاصرا في جزيرة ما . ان الاطفال والعصافير والفراشات والاحلام الصغيرة ، لا يحق لها شرف ان تكون حتى نقطا او فواصل في صفحات التاريخ ، وعلى حناجر البلابل ذاتها ان تسحق سحقا اذا كانت اغنيات المستقبل شؤما في آذان الريح .

ما هي قيمة طفل بحجم العلبة ، بالنسبة لتلك الاساطيل المهشمة ، والمضخات التي تستخلص حتى القطرة الاخيرة من فم الجذور وتقشّف الينابيع ؟

ما قيمة بكاء فلاح مجهول ، او قلق عاشقة مجهولة في مقهى مجهول ، بالنسبة لضحكات الابناء العائدين من النصر ؟

ستقول لي : ولكن القسوة ياسيدي ليست في ان ترى شعبا غارقا بالدم ، او حضارة موشكة على السقوط وإبطها بمتناول يدك ، ولا تفعل شيئا ، بل في ان ترى فراشة صغيرة تتزحلق منذ الظهيرة على الزجاج وتلبط الهواء بفخذيها الرفيعتين دون جدوى ، وتراها في منتصف الليل وهي ما زالت تتزحلق على الزجاج وتلبط الهواء بفخذيها الرفيعتين وهي تلهث دون جدوى ، ولا تفعل شيئا . ولكنني سأجيبك على كل ذلك بانه هراء . الطفولة بذرة الصراخ ، والريح موطناً ومناخاً ، اما الورود والفراشات والاحلام الصغيرة ، لا كرمز بل كورود وفراشات واحلام صغيرة ، فهي شبح سري يهددنا من اعمق اعماق جذورنا .

هل يتحدث العشاق في المقاهي عن الدمامل المتفسخة في المستشفيات ، وارتجاف العمال في المجارير ؟ ابداً ، انهم يتحدثون عن الورود والاحلام الصغيرة ، حيث يرقد صراخ المستقبل ورعب الناشئة ، عندما تهرم المرأة التي

احبوها وتتجعد النهود والاصابع التي داعبوها، ويغطي غبار الحروب جدران المقاهي ، واكوابها المتقابلة على اطراف المناضد .

هيا ، ليلتق العبيد والفولاذ في مكان ما ، كذئبين كاسرين في غابة مزهرة او شارع يغمره الوحل ، وهذا مسدسي جاهز لرصاصة الخلاص .

هيا . انني لا اعلم كيف تتم مثل هذه الامور ، ولكنها تتم ، وليس من اختصاصي ان اعرف كيف. كل ما يهمني هو انني البس قميصا نظيفا كل يوم، وآكل ثلاث وجبات كل يوم ، واضاجع زوجتي ساعة اشاء وانا افكر بترقيتي المحددة بتاريخ محدود . ولكن من يجوع ؟ من يعرى ؟ من يضاجع عنزة ؟ فهذا ليس من اختصاصي . ان الاشياء اجنحة يضرب بعضها بعضا وتنزف، تختلط وتهدر كالماء ، ونحن ندور فوقها كالنواعير . والآن ماذا تريد بعد ذلك كله ؟

المتهم : اريد طفلي يا سيدي .

الحاجب : (صارخا) لقد اغلقنا هذا الموضوع .

المتهم : ولكن هذا لا يجوز يا سيدي ؛ كأنك تغلق بذلك فمي على كتلة من النار. ان الطفل لم يبرح ذاكرتي .

الحاجب : (ملتفتا الى القاضي) سيدي لم اعد اطيق الانتظار .(ملتفتا الى المتهم)أ وتسمي تلك القطعة البذيئة من اللحم طفلا ؟ لا يزن ثلاث اقات بعد رضاعته .

المتهم : ولكنه طفلي . ولم انجبه بمخابرة هاتفية .

القاضي : حسنا ، حسنا . ما لون عينيه ؟

المتهم : زرقاوان .

الحاجب : بل سوداوان .

المتهم : ولكنهما زرقاوان ،كل جيراننا يعرفون انهما زرقاوان .

القاضي : ولكن ما هو مكتوب امامي يؤكد انهما سوداوان .

المتهم : اذاً سوداوان .

القاضي : لا تغضب ، انه القانون .

الحاجب : لقد بدأ المهر يحني عنقه .

القاضي : يشمشم الارض ويرفس .

الحاجب : يكفي . تابع .

القاضي : ما عمره ؟

المتهم : ثلاث سنوات .

القاضي : ولكن ما هو مكتوب امامي يؤكد ان عمره سنتان .

المتهم : ولكن عمره ثلاث سنوات ياسيدي .

القاضي : قلت سنتين ولن اضيف ساعة واحدة بعد ذلك .

المتهم : ولكنني اعرف عمر العصافير التي غردت ساعة ولادته .

القاضي : مستحيل . انه القانون .

المتهم : سيدي . ليجلس القانون في حجري ويلفّ ساقا على ساق . قد تكون له علاقة بالسياسة ، بالاقتصاد ، بالرشاشات ؛ ولكن ما علاقته بطفل صغير ، او بعمره ولون عينيه ؟ سيدي ، حدثني مرة اخرى عن القانون وسأطير من النافذة . (بصوت خافت وحزين ، وهو يكاد يبكي) سيدي اؤكد لك ، اؤكد لك ياسيدي ، انك لم تر في حياتك كلها ثوبا صغيرا معلقا الى الحائط دون اصابع صغيرة خارج اكمامه ، دون حلوى في جيوبه .

القاضي : وهل تريد ان نعلقه ميتا على الحائط ؟ لقد قتل خطأ وانتهى الامر .

المتهم : سيدي ، وما الفرق في ان يموت خطأ او يموت على الآلة الحاسبة ؟

الحاجب : هل تريد ان تتحدث عن دوافع الجريمة ، والا انفجرت بك وبالعالم اجمع ؟

المتهم : طبعا طبعا، سأتحدث عن دوافع الجريمة. انني اعتذر. لقد كان موضوع الطفل جانبيا بالفعل ، لانني قطفته عن شجرة ، او كبست زرا على بطن امه فانجبته. انني اعتذر مرة اخرى ، ولكنني حائر كيف ابدأ ، لان ما حدث شيء فظيع ، فظيع جدا ، وعليّ ان اتحمل نصف النتائج على الاقل : والا ما معنى تحية العلم في الزمهرير، ما معنى كل الجماجم التي دحرجت عبر التاريخ من اجل العدالة والمساواة ؟

الحاجب : سيدي ، هل تسمح لي بان ادحرجه قليلا امام هذه المنصة ؟

القاضي : لا ، ليس الآن .

الحاجب : (يبكي) ارجوك يا سيدي .

القاضي : ليس الآن ، ليس الآن . لقد انتصف النهار ونحن ما زلنا نقفز كالجراد على ابواب الحادث . هيا تكلم ايها المتهم .

المتهم : اذاً لن تسمح له بدحرجتي امام هذه المنصة ؟ شكرا يا سيدي، شكرا .

القاضي : هيا ، تكلم في صميم الموضوع ، في صميمه تماما .

المتهم : ولكن طفلي قتل مع جدته امام قصر الامير ودفن في ذات اللحظة .

الحاجب : (صارخا ومزمجرا) وهذه الصفحات ؟ هل ادفنها في احد الادراج ؟ يجب ان تحاكم بموجبها.

المتهم : ولكن لا صحة لها .

الحاجب : لا يهمني . لقد دوّنها رجال مختصون يتقاضون راتبا من الدولة ، ووضعوا لها تاريخا وحاشية ورقما متسلسلا ، وشطبها بعد كل ذلـــك كشطب وجهي بسكين .

المتهم : اذاً اريد شهودي .

القاضي : من هم شهودك ؟

المتهم : حبيبتي واطفالي واوراق الخريف . (تهب رياح قوية في تلك اللحظة تقلب الاوراق عن المنضدة ، وتضرب الستائر يمينا وشمالا) .

القاضي : وهل يأتي الخريف ؟

المتهم : نعم يا سيدي .

القاضي : (فزعا) هل انت جادّ ايها السيد ؟

المتهم : نعم يا سيدي . (الريح تشتد وتعصف بقوة) .

القاضي : (بذعر) كيف ومتى ؟ اخبرني بذلك ، ارجوك .

المتهم : سيأتي من النافذة ، او المحبرة ، حزينا يشهر سيفه .

القاضي : يا الهي .

المتهم : ساخطا ومقهورا ، وكل حضارات العالم ملصوقة على وجهه كالتواليل. (تظلم السماء فجأة وتكفهر ، تبدو زوابع الغبار من الخارج وكأنها تريد ان تلتهم وتدمر كل شيء) .

القاضي : يا الهي .

المتهم : ستستيقظ ذات صباح لتجد كل شيء اصفر وشاحب
عينيك واوراقك
زوجتك واطفالكواسنانك ومدافعك .
وكأن كل مرارة في العالم قد انفجرت
وسالت على مبعدة امتار من مكانها .

القاضي : (بهلع كبير) ايها الحاجب ، نادِ الشهود . نادِ الشهود .

الحاجب : تعالي ايتها المرأة .(المرأة تجيب) .
تعالوا ايها الاطفال . (الأطفال يجيبون) .
تعال ايها الخريف . (صدى) .
تعال ايها الخريف . (صدى) .
تعال ايها الخريف . (صدى) .

سيدي ، الخريف لا يجيب .

القاضي : (باطمئنان ممزوج بالذعر) اسمعت ؟ اسمعت ؟ انه لن يأتي .

المتهم : انه يتحضر ياسيدي . (ستار) .

(تدخل زوجة المتهم ، وهي امرأة جميلة حنطية اللون ممزقة الثياب وقد تدلى نصف ثدييها الى الخارج ، فزعة ملهوفة ، يجرها حارسان عملاقان ويطرحانها متهالكة وسط المحكمة ، وبجانبها حارس جريح) .

القاضي : (مغطيا وجهه بيديه) ما هذا ؟ هل انت على شاطىء البحر ؟

الزوجة : (تحاول ستر عريها) انني ... انني ...

المتهم : لا ترتبكي يا يمامتي. قفي كما انت.

القاضي : لا يجوز . لا يجوز .

المتهم : (صارخا) ولماذا لايجوز ؟ هل تتهيج العدالة ؟

الجريح : انها تبدو كقديسة بالنسبة لما كانت عليه عندما وقع الحادث يا سيدي .

المتهم : يا للشهامة . انني واثق من انه لا يعرف الفرق بين جبل عرفات وجبل طارق.

الزوجة : بل انا واثقة بانه لا يعرف كم ثديا لأمه .

الجريح : سيدي ، هذا نموذج بسيط لما قاسيته منها عندما وقع الحادث .

الزوجة : (للقاضي) ليتك كنت هناك ياسيدي .

المتهم : اي بمعنى انك لن تكون في اي مكان .

الجريح : انهما يكذبان . ليتني استطيع ان اريك آثار كلماتها عندما وقع الحادث ، لقد حطما كبريائي بفأس، ولطخا معطفي الجديد هذا بلطخ لن تزول الا بدمهما.

الزوجة : ودم الطفلين الباقيين ، اليس كذلك ؟ (تبكي) .

الجريح : هذا اتركه لعدالة المحكمة .

المتهم : يا يمامتي الغالية ، انك تحتضرين .

الحاجب : لا احتضار اثناء المحاكمة . بل الاحتضار حتى اعود . (يخرج) .

الزوجة : (للقاضي) سيدي، انه يطالب بدمنا لازالة تلك اللطخ عن وشاحه الجميل هذا؛ ولكنني اؤكد له انه ما من مصبغة بشرية في العالم يمكنها ان تزيل ما على وشاحه الجميل من ادران ، ليس دمنا فحسب ، بل دماء الملايين . اما دم الطفلين الصغيرين، بل دم كل اطفال العالم ، فلن يكفي حتى الباقة اوالازرار. (توجه كلامها للجريح) انني اقطف لك نهدي باسناني ، واقدمه لك هدية

وتعويضا عن ذلك الحادث الرهيب . (متهكمة) عندما وقع الحادث ... عندما وقع الحادث ... منذ اول الجلسة وانت تقول وتتلعثم : عندما وقع الحادث ... عندما وقع الحادث ... (صارخة) هيا انطق هذه الجوهرة .

القاضي : (صارخا ايضا) ان ما تقوله صحيح ، فأنا شخصيا اصبح عندي شبق قضائي لمعرفة هذا الحادث .

الجريح : لقد شتماني وضرباني بسنبلة .

القاضي : ماذا قلت ؟ شتماك وضرباك بسنبلة ؟

الجريح : (يبكي) بل بسنبلتين ياسيدي .

القاضي : وانت بوشاحك الجميل هذا ؟

الجريح : وهل كنت اقوم بواجبي عاريا ياسيدي ؟

القاضي : هيا ، هيا تكلم في الموضوع مباشرة . يا للعار !

الجريح : (وهو يمسح دموعه بكمه) سيدي، ان الدنيا كلها غائمة في رأسي ، بل كل شيء غائم ولعين . كنت اقوم بواجبي في شارع مقفر ، عندما سمعتها يهتفان للمطر والحب. وكل ما فعلته عند ذلك انني زمجرت قليلا وطلبت بطاقاتهم الشخصية فرفضا، اما الطفل فقد قدم لي طابته . سيدي، ان ما حدث شيء لا يحتمل ، وغوصي في الموضوع اكثر من ذلك يعني دماري دمارا كاملا كفنان وانسان متصوف مجهول. لقد اطلقت الرصاص على الطفل دون ان اسيء بكلمة واحدة الى والديه . فهشماني على اثر ذلك تهشيما بالسنابل . (يبكي ويتابع كلامه) سيدي، لي رجاء واحد فقط : لقد ذكر في افادتي الاولى ان الحادث وقع في الخريف . انني اريده ان يكون في الربيع .

الزوجة : سيدي ، انه ليس كاذبا فحسب ، بل هو عالم ذري في هذا الميدان .

الجريح : (يبكي) سيدي ، انظر ، يريدان ان يضرباني . انني لن اقبل هذه الاهانات تحت قوس المحكمة .

القاضي : لا تبتئس يا بنيّ ، فكرامتك سترد اليك وكأنها محفوظة في مصرف .

المتهم : (صارخا بجنون) سيدي ، لم اعد اطيق هذه المهزلة ، بل لم اعد اطيق واحدة من عشرة منها . اريد اطفالي شهودا ، الآن ، وقبل ان ازدرد لعابي .

القاضي : ليدخل الاطفال . (يدخل حارس مدجج بالسلاح ، يحمل قفصين في كل منهما طفل ، ويضعهما عند قدمي القاضي) .

الزوجة : رباه انظر . (مخاطبة لا احد) انظروا ، لم يلتفتا اليّ . انهما لم يتعرفا عليّ .

المتهم : قد يظنانك القاضي نفسه ، او قد يظنان القاضي ابريقا او منشفة .

الزوجة : يا الهي . انظر ، لقد شابت اصداغها الصغيرة وتجعد انفاهما كالكهول .

القاضي : سكوت. (يوجه حديثه للطفلين وهما داخل الاقفاص) أأنتما شاهدان ام متهمان ؟

الطفلان : اخرجنا من اقفاصنا لنقول لك .

القاضي : ولماذا ؟ حتى تجعلا هذه المحكمة كغرفة استقبال بعد ذهاب الضيوف ؟ اخرجهما ايها الحارس . (يخرج الطفلان من قفصيهما ، وقد غطاهما الشيب وكستهما الاقذار) .

الزوجة : رباه ، لقد شابا كأسرى العصور الحجرية . انظر . برعمان صغيران يغطيهما الشيب . (تنتحب) .

المتهم : يا طفليّ القذرين ، انكما اشبه بقطعتين قذرتين من الثلج الشاحب ، بل كآثار كعبين صغيرين على طريق يغطيه الثلج الشاحب .

القاضي : (للطفلين) والآن أأنتما شاهدان ام متهمان ؟

الطفلان : لا نعرف يا سيدي .

القاضي : وماذا تعرفان اذاً ؟ هيا تكلما .

الطفلان : لا نستطيع ياسيدي . شفاهنا يابسة كالتنك .

القاضي : وماذا افعل لكم ؟

الطفلان : قطرة حليب لكل منا ، بل نصف قطرة ونغرد لك كالطيور .

القاضي : اريد اعترافا لا تغريدا . (يتناول الحارس ابريق الماء عن الطاولة ويشرب بصوت مسموع).

المتهم : يا الهي ، لقد طارت الرحمة كقبعة في الريح .

الطفل : ايها الحاجب . سأعطيك دميتي ولكن اعطني قطرة ماء .

الطفلة : سأعطيك شريطتي ، ومشطي الصغير ، ولكن اعطني قطرة ماء .

الزوجة : لقد انتهى العالم .

الجريح : ان هذا الطفل يتكلم وكأنه—

الطفل : لا لست ماركسيا ياسيدي ، ولكنهم يقدمون لنا الطعام والماء باغطية الزجاجات .

الطفلة : (تخرج عددا من الاغطية من جيوبها) لقد جمعت منها كثيرا . سألعب بها في الزقاق عندما يطلق سراحي . (تبكي) .

المتهم : يا طفلتي الصغيرة ، اذا كان مشطك الصغير هذا يؤثر في شعر الماعز ، يؤثر في مثل هؤلاء . انك لست كفراشة بل كنصف فراشة ؛ لم تنمي اصبعا واحدا منذ اجيال .

الطفلة : لا اريد ان انمو يا ابي .

المتهم : ولماذا يا ابنتي ؟

الطفلة : لقد رأيت اكثر مما يحتمل من الحياة . انني ارتجف يا ابي . اعطني شيئا لاتدثر به .

المتهم : وبماذا ادثرك ياطفلتي ، وليس لديّ حتى نصف محرمة ؟

الطفلة : ولا تستطيع ان تطعمني ؟

المتهم : لا استطيع يا ابنتي .

الطفلة : اذن سأهجرك يا ابي .

المتهم : كما تشائين يا ابنتي .

القاضي : ابعدوا هذه الطفلة ، وليتقدم الطفل . (الطفل يتقدم ببطء واعياء) .

المتهم : يا طفلي الصغير الحبيب .

الطفل : ارجوك يا ابي ، اريد ان انهي محاكمتي بهدوء .

المتهم : آه يا طفلي الصغير البائس .

الطفل : لا شيء نتحدث عنه يا ابي .

المتهم : ولماذا يا بنيّ ؟ والحياة امامك تصطخب كالامواج .

الطفل : سأنتحر هذه الليلة .

الطفلة : نعم ، لقد عضّ شريانه ليلة امس ، ولكنه بكى من الالم وملأ قفصه صراخا .

القاضي : لا تصغ اليه ايها الطفل . اتسمع ؟ انا القاضي وليس هو .

الطفل : ولكنه ابي .

القاضي : انني ارفع لك قبعتي احتراما وتبجيلا ، وماذا في الامر ؟

الطفل : لا شيء . انني اعتذر .

الزوجة : يا الهي ، انه لا ينظر اليّ . انه كوحش صغير في الصحراء .

القاضي : (للطفل) هل انت مريض ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل انت معافى ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل انت حزين ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل انت سعيد ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل تكره اباك وامك ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل تحبهما ؟

الطفل : لا .

القاضي : هل تريد ان تخرج من هذا القفص وتلهو مع رفاقك الصغار في الشارع ؟

الطفل : (يندفع صارخا ومنتحبا ويقبل قدمي القاضي) نعم ياسيدي . انني اقبل قدميك ، ولكن لا تعدني اليه . سأعطيك طابتي وطوقي هذا ، ولكن لا تعدني اليه.

(يظل الطفل مكبا على قدمي القاضي) .

القاضي : انهض واقسم على الكتاب المقدس انك تقول الحق .

الطفل : (ينهض ويضع يده على المحبرة) .

القاضي : (صارخا) يا لك من ابله وماكر . لقد ادركت نواياك . هذه محبرة وليست كتابا مقدسا . الا تعرفها ؟

المتهم : ارجوك ، لا تزجره ياسيدي : انه ليس الا طفلا صغيرا ولا يعرف شيئا ؛ قضى كل حياته في المعتقلات . حتى لو سألته عن ثدي امه هذا لن يعرفه ، سيظنه دمّلة او نتؤا من اللحم .

الحاجب : (يدخل فجأة ويخاطب القاضي وهو يقضم تفاحة حمراء باسنانه) اقرأ قرار المحكمة ايها القاضي .

القاضي : (بعد ان يأخذ وضعية القاضي) باسم الشعب :

نظرا للافادات والوقائع الدامغة في الجريمة النكراء موضوع الدعوى ، وبعد الاستماع الى كافة الشهود والمحامين ، وتمحيص مختلف الاضبارات والاستمارات ، وبناء على اعتراف المتهمين جميعا اعترافات صريحة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام، قررت المحكمة اعدام المتهمين شنقا تحت شجرة خريف جرداء في ليلة عاصفة .

اما الطفلان الصغيران، فسيعدمان نظرا لصغر سنهما ببندقيتين صغيرتين.

الحاجب : ليؤخذ المتهمان الرئيسيان ، ولتدخل فرقة الرمي الوطنية .

(تقفر القاعة من الجميع ، ويبقى الطفلان كدمعتين صغيرتين في صحراء العالم. ينظر واحدهما للآخر ، وهما متشابكا الايدي . ثم تظلم القاعة فجأة ، وتهب رياح قوية تحطم زجاج النوافذ وتلقي بشظاياه على الصخور ، بينما تتأرجح الستائر وتتألق بالوان نارية داكنة . ويسود القاعة جو لا يحتمل من الرعب والغبار والاعشاب اليابسة) .

(تدخل فرقة الرمي وتشكل نصف دائرة حول الطفلين الفزعين ، بعد ان يحزما

جيدا الى خشبتين متجاورتين ، وقد اخفى كل منهما طابته خلف ظهره، وهو ينظر برعب حقيقي الى فوهات البنادق ، وفجأة تدوي طلقـــات الرصاص وتهتز اركان الغرفة هزا بكل ما فيها ، تخرج فرقة الرمي ، ويبقى الطفلان مضرجين بالدم . وقد تدلى رأس كل منهما على صدره ، وتدحرجت طابته بهدوء على الارض . ثم تهب ريـح قـوية اخرى محملة بالغبار والاشواك واوراق الصحف ، يرفرف خلالها عصفوران غريبان ثم يحط كل منهما على خشبة) .

الريح : في الشرق او في الغرب
في زمن المصاعد الجامحة
او الخيول المكبّة على قوائمها
في الليل او في النهار
قبل تناول الافطار وبعد تناول المسكنات
بين عظام القراصنة
والعيون المفقوءة بين الرمال
ستنبت ازهار صغيرة كأسنان الاطفال
ازهار مقصومة الظهر
تحمل فوق عبيرها المتواري
حضارات بائسة وجيوشا مخدوشة بالاظافر
كما تحمل الطابة فوق الماء
ماء مشرد وحزين
سنحفر مصبّه في اعمق اعماق الارض
لا بالسبابات ورؤوس المظلات
ولكن بالاهداب واطراف السلاسل

عصفور : اذا نبتت زهور ما —

العصفور الآخر: قد لا تنبت زهور ما . (ستار).